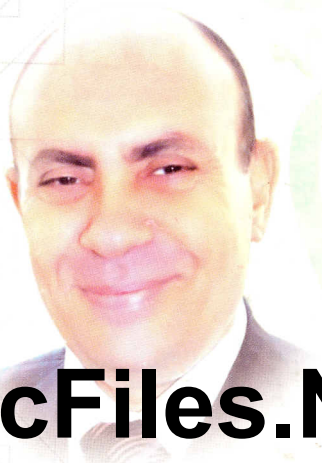


تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الإسلامية
<http://islamicfiles.net>

رُكَّائُنَا الدِّعَاءِ فِي الْإِسْلَامِ



islamicFiles.Net

بقلم
دكتور عبد الوكيل عطية
الأستاذ بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، خير من دعا الله ، فاستجاب له وآواه ، ومن كل كرب نجاه ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ،

وبعد :

فإن رحمة الله الواسعة تقتضي أن يسعى إليها العبد المكلف كما أمر ربنا تعالى حيث قال : ﴿ فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ ، فمن أراد رحمته تعالى بدون أن يكون تقياً من دون أن يخرج زكاة ماله إن كان ذا مال وبلغ ماله النصاب كان واهماً ؛ لأنه بمثابة من يطلب شهادة جامعية دون أن يلتحق بالجامعة وبمثابة من يطلب الولد دون أن يكون متزوجاً وهذا من الغرور الذي حذر الله منه عباده حين قال : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ والعلماء على أن الغرور بفتح العين هو الشيطان الرجيم ، وهو يغر الناس برحمة الله كما يغرم بالتعرض لعذابه ، بأن يزين لهم سوء أعمالهم فإذا بهم يرونها حسنة وبمثل ذلك يغرم برحمته تعالى فيزين لهم سبيل الحصول عليها دونما تقوى أو عمل للصالحات وإذا بالهواة من الدعاة يذكرون آيات الرحمة وأحاديثها دون تدبر ، الأمر الذي يجعل الناس لا سيما العوام يتوهمون ثبوت الرحمة وقربها من العباد لأنهم فقط عباد ، وكأن ذلك بمثابة الوالد الشفوق على ولده برغم سوء أدبه ، والشائع في هذا السياق قول من يشفع له عند أبيه خصوصاً أمه : (إنه لا يهون عليك ، وإنه فلان أول فرحتك أو آخر العنقود ، وهل نسيت إنه دواء عينيك وماء رئتيك وأنت لا تتحمل أن يهب النسيم

فوق شعره)، وغير ذلك من الكلمات التي ينفلق بسببها الكبد وينفطر لمعناها الفؤاد، فإذا بالرجل يبكي أو يكاد، ويضم ولده إلى صدره وكأنه تفوق في دراسته أو أحسن وما كانت منه إساءة.

والله - عز وجل - ليس كمثله شيء، بدليل أنه تعالى يقول: ﴿قَدِمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّاهُمْ لَا يَخَافُ عِقَابَهَا﴾، وما من أحد في العباد الأسوياء يدمدم على أهله لا سيما ولده إلا ويلطم خديه بعد الدمدة، وإن لم يفعل شعر بشيء في نفسه يكدر عليه صفو الحياة إن كان بها صفو، ويؤرق عليه نومه إن استدعاه النوم أو حاول هو اللجوء إليه، إن لم يصل به الحال إلى أن يكون في صفوف المرضى النفسيين في مستشفياتهم المعروفة، بخلاف الشواذ الذين هم مرضى قبل أن يدمدموا وهؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

وخلاصة القول في هذه المسألة أن ربنا - تعالى - ذو رحمة واسعة وذو عذاب شديد، ورحمته لمن سألها على وجهها، الذي بين ربنا في آية الأعراف وفي غيرها من الآيات، وعذابه قائم لمن عصاه، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى»، ووضح للصحابه الكرام الذين نظروا إلى ظاهر اللفظ وكأنهم تعجبوا من الذي أبى أن يدخل الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم كاشفًا هذه الشبهة: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

ولا شك أن الداعي الذي يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء إنما يرجو رحمته في الدنيا

بتوسيع رزقه وراحة باله وتوفيقه في أعماله وصلاح ذريته وسائر أحواله، ويرجو رحمته في الآخرة بأن يدخله ربنا في واسع رحمته..

وما أيسر الدعاء من حيث كونه ألفاظًا، ثبت في كثير من كتب العلم أن بعضه مجرب، وهذه كلمة تغر الجاهلين الذين يزعمون أنه كما أجيب للذين جربوا سيحباب لهم، وفي هذا غرور وبعد عن فقه الدين، ولو سلمنا بمسألة التجربة فلا بد أن نستوفي المعادلة ولا مشكلة في جزء الإجابة، وإنما المشكلة في الطرف الآخر الذي هو الداعي، فإن الداعين مختلفون، ولو اتحدت صفاتهم وتشابهت أعمالهم لكانت التجربة صحيحة، ولتوضيح ذلك أقول: ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن الدعاء الذي دعا به يونس - عليه السلام - يكشف الله به الكرب، ألا وهو الوارد في آية الأنبياء: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وبلغة التجربة ثبت نجاحها فنجاه الله من الغم، وكشف عنه الكرب، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، فالمؤمنون موضع التجربة، وبلغة هذا البحث أقول: إن دعاء نبي الله يونس - عليه السلام - قد ارتكز على دعامة مما يرتكز عليها الدعاء وهي اتهام نفسه - عليه السلام - بالظلم، وكثير من الدعاة لا يتهم أحد منهم نفسه بالظلم، بل إن منهم من يقول: يا رب ماذا فعلت حتى تبتلينى بكذا، يزكى نفسه وتشتم من عبارته رائحة نسبة الظلم إلى الله الذي ابتلاه دون ذنب جناه، فماذا يفعل؟ وأى معنى تدبر؟ وهو يقرأ القرآن وفيه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، وقوله تبارك اسمه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، وعلى هذا عموم القرآن

الذى يفيد بأن المصائب لها علاقة وثيقة بما قدمت أيدينا وما اقترفناه من الذنوب والمعاصي ، وقد نقل الإمام ابن عبد البر - رحمه الله - خطبة العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - ، وهى دعاء فى الاستسقاء ، قال : « اللهم إني أعلم أنه لا عقاب إلا بذنوب ، ولا عافية إلا بتوبة » ، ثم سأل الله فاستجاب وأمطرت لأن رحمة الله قريب من المحسنين ، وفى الإقرار بالذنوب مع صدق نية التوبة إحسان ، وقد تأملت آيات الكتاب الكريم وكثير من كتب السنة ، فوجدت أن الدعاء إما أن يكون أعرج لا يستند على شىء ، وإما أن يكون معافى يركز على دعامة تؤهله للصعود إلى السماء ، فيجيبه الفعال لما يشاء ، وهذه الدعائم التى وقفت عليها ثلاث وثلاثون دعامة ، بذلت فيها من الجهد ما أحسبه عند الله يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وأسأل الله تعالى أن ينفع به صاحبه وسائر المسلمين إنه ولى ذلك والقادر عليه ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصلى الله وسلم على خير من دعا الله فاستجاب دعاه سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أ. د. مبروك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر

ركائز الدعاء

١ - أن يكون للداعى رصيد من الخيرات عند الله ..

والدليل على أن توافر هذا الرصيد من الخيرات عند الله من ركائز الدعاء قول الله ربنا فى إجابته دعوة عبده زكريا عليه السلام حين دعاه الذرية الطيبة : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ﴾ (الآية ٩٠ من سورة الأنبياء) .

وليس من المعقول أن يتجه شخص إلى بنك من البنوك يسأله أن يعطيه مبلغاً من المال وليس له رصيد فيه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل سبيل الرصيد ميسراً ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ على عكس مسألة البنوك ، التى ربما امتنعت عن فتح حساب برصيد مصرى أو بمبلغ تافه ، إذ لا يعقل أن يذهب شخص إلى البنك يسأله فتح حساب بجنيه ، إن لم يطرده البنك سخر منه ، وما هكذا الحال مع ذى الجلال الذى يتقبل القليل ، وينميه حتى يأتى يوم القيامة وقد صار مثل الجبل العظيم ، وورد بذلك حديث رواه البخارى فى صحيحه ، بل إن ما لا يصلح أن يكون رصيماً فى البنوك يصلح أن يكون رصيماً عند الله ، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والكلمة الطيبة صدقة » ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « وإماطة الأذى عن الطريق صدقة » ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الذى رواه مالك فى الموطأ

وغيره : « المعروف كله صدقة » ، ومثل له صلى الله عليه وسلم بطلاقة الوجه عند لقاء الناس ، وبأن يدلى المرء فى دلو أخيه المستسقى شيئاً من الماء من دلوه ، ولا أدل على هذا اليسر من التوجيه النبوى الرشيد بأن إذا طبخنا أن نكثر المرق لنسع جيراننا ، وقد دخل عليه جابر رضى الله عنه ، وسأله عن مطبوخ فى بيته صلى الله عليه وسلم فأخبره بأنه القثاء ، يكثر به صلى الله عليه وسلم طعامه ، لكى يكفى أهل بيته ومن زاره ، وهو عليه الصلاة والسلام أكرم الناس وأجود الناس ، وكان أكرم ما يكون فى رمضان ، كان أسرع بالخير من الريح المرسلة ، وما قال صلى الله عليه وسلم لسائل لا .

ومما روى فى ترجمة أبى إبراهيم الجهنى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إنك تحب الله ورسوله » بسبب حفنة من التمر استأجر نفسه عليها عند اليهود لكى يأتى بها يأكلها هدية لا صدقة ، فعدّها آية حب الله والرسول ، وكان عليه الصلاة والسلام يفرح بالقليل من النعم ، وقد روى الواقدى فى المغازى أنه صلى الله عليه وسلم كان على سفر وأتاه أعرابى بقتاء صغيرة هدية له ، فأخذ يأكل منها ويريه أنها تحفة ؛ جبراً لخاطرهم وبتاً لروح العطاء فى أمته ولو بالقليل ، وأرسل منها إلى زوجته أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها تأكلها ، إلى غير ذلك من النماذج والصور المشرقة التى يصورها تنكير لفظ شىء فى النظم الجليل حيث قال ربنا تعالى : ﴿ وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم ﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ فنكر لفظ النفقة ، ويقول عز وجل فى

آية (التوبة ١٢١) : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ فضم الصغيرة إلى الكبيرة رحمة منه ولطفًا بعباده .

ولن يعدم باحث فى هذا الدين عن سبيل يكون له به رصيد عند الله ، ويكفى دليلاً على ذلك أن من هذا الرصيد قول النبى صلى الله عليه وسلم « يمسك عن الشر » ، فجعل السلب بمثابة الإيجاب فى اتخاذ سبيل إلى الله ينجيهِ من ويلات عذابه ويدنيه من روضات نعيمه ، فاسأل نفسك أى رصيد لك عند الله ؟

أولاً : من إقامتك لدينك من حيث الأركان التى بنى عليها ،

ثانياً : من النوافل التى تقربت بها إلى الله حتى يحبك ، وقد قال فى الحديث القدسى : « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها » ، وإذا كان كذلك هل يتصور أن يدعوه فلا يستجيب له ؟ ، وما أكثر النوافل التى يتقرب بها العبد إلى الله من صدقة قد تكون رغيماً أو بعضه ومن ركعتين فى جوف الليل ومن تجديد وضوء .

٢ - أن يكون الدعاء ملتبساً بعمل صالح يرضاه الله ..

وتلك قاعدة عامة في الدعاء وقد غابت - مع الأسف - عن كثير من الداعين الذين يخرج الدعاء من أفواههم وأيديهم مغلوطة ، وأرجلهم موقوفة وقلوبهم غافلة وميادين العمل تنشدهم ، وهم متكاسلون متواكلون ، يدعون بغير عمل ، كالذى يسأل الله النجاح والحصول على أعلى الدرجات ، وهو يلعب مع رفاقه مهملاً كتبه طارحاً أدواته ، ولو أراد أن يكون دعاؤه مقبولاً لسأل الله النجاح وهو يستذكر ويحصل بجد ، قال الله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ ، وقال سبحانه في آية (البقرة ١٢٧) : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ، فقد دعا خليل الله إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما السلام - الله تعالى ، وهما يرفعان القواعد من البيت ، وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم نصرئك الذى وعدتنى » إلا وهو فى ساحة القتال ، وقد أعد للأمر عدته واستشار أصحابه واستخبر بعيونه ، بل مضى بنفسه ومعه صاحبه أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - وسأل عن خروج قريش متى كان ، وأين هم الآن ، وأخذ برأى الحباب بن المنذر ، فوقف بجيشه العظيم فى الموقف الذى تقتضيه الحرب ثم سأل الله نصره الذى وعده ، ونحن نسأل الله النصر ونحن على الأسيرة ، وفى الأندية ، وعلى نواصى الطرقات ، وفى صلاة الآمنين لا فى صلاة الخوف ، قائلين :

اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين ، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ، وقد كان هذا دعاء الشاب الفتى الندى خبيب بن عدى ، قبيل أن يصلبوه مظلوماً ، ولم يكن دعاء شاب لاه عابث عرف كيف يدعو ولم يعرف أن الدعاء ملتبس بالعمل ..

وأقل مثال على ذلك يفهمه جميع الناس أن يسألك شاب أن تدعوه له بأن يوفقه الله إلى زوجة صالحة دون أن يبحث عنها وكأنها سوف تهبط عليه من عليا السماء أو ستأتيه بوليها من عمق شعاب الأرض إلى حيث يسكن ، قائلة له أتعبتنى لكن التعب فى سبيلك يهون ، وكذلك حال طالب العلم الذى خدع كثيراً من الأئمة الذين يدعون الله على المنابر قبيل الامتحانات قائلين : اللهم نجح أبناء المسلمين ، وهذا عدوان فى الدعاء ، لأن من أبناء المسلمين من يستحقه وهو الذى اجتهد واستذكر ، ومن أبنائنا من لا يستحقه لأنه أهمل ، فكيف نجمع بين مجتهد ومهمل ، وعامل وعاطل وصحيح وسقيم .

٣ - أن يكون الداعي مخلصاً لله الدين ..

معنى الإخلاص أن يكون الشيء خلواً من الشوائب ، فأنت تقول : هذا لبن خالص إن لم تخلطه بماء أو شاي أو غيرهما ، وكذلك الحال في الدين وخلوه من الشوائب حتى يتحقق فيه الإخلاص ، أن نعبد الله وحده لا شريك له ، فلا نعتقد أن شيئاً ينفع أو يضر غير الله تعالى ، وأن الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها ما هي إلا مطية من الله لنا تريحنا من عناء التجرد منها ، فقد قال عز وجل في الأنعام التي تركب : ﴿ وتحمّل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ ولو شاء لأوقفها عن طبيعتها وعن حركتها كما قال في آية (الشورى) في الفلك الجوار في البحر كالأعلام : ﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبصهن بما كسبنوا ويعف عن كثير ﴾ ، وكثير من الذين يدعون الله ينحرفون عن معنى الإخلاص بجهل لا يشفع ، وبموروث عادات لا تنفع ، فإذا بهم يتطيرون ولا طيرة في الإسلام ، ويعتقدون في دجالين ، وفي سكان أضرحة أفضوا إلى ما قدموا ، وهم وغيرهم في حاجة إلى الدعاء لهم ، ولا يملكون لأنفسهم ، لغيرهم نفعاً ولا ضرراً وهم أحياء ، فما بالك وهم موتى ، ويمتد ذلك إلى الاعتقاد في نفع شيء أو ضرره من نباتات وحيوانات وأيام ووجوه ، بل إن الأمر قد يصل ببعضهم إلى مفاهيم خطأ تشكل خطراً عظيماً في حياتهم ، وتسئ إلى دينهم ومن ذلك ، رد

شاب طيب خطب فتاتهم لأنه بمجرد دخوله عندهم أول يوم ماتت أم العروس ، فقالوا إنه وجه شؤم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الذي زوج عثمان ابنته أم كلثوم ، بعد أن ماتت عنده أختها رقية ، وورد في بعض الروايات أنه قال له : « لو كان عندنا ثالثة لزوجناك » ، لأن عثمان - رضى الله عنه - لم يقتل رقية ، وإنما استوفت - رضى الله عنها - أجلها على حسن عشرته معها ..

ومن ذلك اختلاف الناس وكأنهم اتفقوا على أن يختلفوا في يوم يجعلونه شؤماً وآخر يجعلونه سعداً ، فهذا يقول لا أحب يوم الأحد ، وهذا يقول لا أحب يوم الثلاثاء ، كما يختلفون في أيام السعد كذلك ، ينسبون الشقاء والسعادة إلى الزمان كما ينسبونهما إلى أشياء أخرى ، وقد ورد في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم والكرام معه كانوا على سفر ، فأصبحوا وقد مطروا ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم لهم ولنا وللدنيا إلى يوم القيامة أن من قال في ليلة المطر : مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك المؤمن ، ومن قال : مطرنا بنوء كذا فذلك الكافر ، وقد شرحها ابن عبد البر ، وذكر أقوال العلماء فيها ، وهم فريقان ، الأول :

- متمسك بالظاهر ، يرمى بالكفر من قال مطرنا بريح أمشير مثلاً ، أو بسبب كذا وكذا مما هو معروف في الأرصاد الجوية ، والثاني :

- لا يهتم من قال ذلك بالكفر إذا كان يقصد أن الله تعالى هو الذى جعل النوء سبباً في الإمطار ، ونستطيع الخروج من هذا الخلاف بالبعد عما فيه تأويل ، خاصة أن الذى لا تأويل فيه سهل على من وفقه الله تعالى ،

بأن نقول مطرنا بفضل الله ورحمته ، وقد ورد في حديث كعب بن مالك حين نزلت توبة الله عليه وعلى صاحبيه ، الذين تخلفوا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه - أى اعتقدوا - فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى كعب يبشره بتلك التوبة الصبوح ، فلما دخل عليه المسجد ، قال له : « أبشريا كعب بخير يوم طلعت عليك شمسك منذ ولدتك أمك » ، فقال كعب : منك يا رسول الله أم من الله ؟ ، فرد عليه قائلاً دون أدنى تردد : « من الله » ، وكثير من الناس لو سئل هذا السؤال اليوم لسكت قليلاً قبل أن يقول من الله ، يوهم سائله أن له دخلاً أى دخل ، فى فضل الله عليه ، والكلام فى الشوائب التى تكدر صفو الإخلاص كثير لا يتسع له المجال هنا ولكن يمكن أن نضع له خلاصة فى أمرين :

الأول : أن الإخلاص يكون فى التوحيد فلا ندعو إلا الله ولا نعتقد فى سواه ، ولا نشرك به شيئاً كائناً ما كان من ملك أو نبي أو إنس أو جان والثانى : أن الإخلاص يكون فى العبادة كما يكون فى التوحيد والاعتقاد ، وإجماع العلماء على أن الله تعالى لن يقبل عبادة عابد إلا بشرطين :

١ - أن تكون العبادة خالصة لوجهه تعالى دون شرك أو رياء

٢ - وأن تكون صحيحة الأداء كالصلاة مثلاً لا تقبل دون طهارة بالماء أو تيمم بالتراب إذا فقد الماء أو تعذر استعماله أو كان فى حاجة شديدة إليه .

٤ - مناخ النعم ..

ومناخ النعم من ركائز الدعاء ، ومعناه أن يمر الداعي بنعمة الله تعالى - وما أكثرها - : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، فإذا به يتذكر أن المنعم هو الله ، ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، فيدعو الله الذى أعطى غيره وأنعم عليه أن يعطيه كما أعطاه ، والدليل على أن مناخ النعم من ركائز الدعاء ، قوله تعالى فى (الآيتين ٣٧ و ٣٨ من سورة آل عمران) : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ ، فقد دخل عليه السلام عليها وهى ترفل فى مناخ النعم ، وقد سألها وأجابت ، فسأل الله حاجته واستجاب الله له ، وكأنه قال يا من رزقت مريم بغير حساب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، ويستفاد من الآيتين أن الذى يمر بمناخ النعم ليس شرطاً أن يسأل الله تعالى تلك النعم بعينها ، وإنما يسأله ما هو فى حاجة إليه ، فإن زكريا لم يسأل الله ما عند مريم وإنما سأله ذرية طيبة ، رأى أنه فى حاجة إليها ترثه علماً وفضلاً ، فقد تكون فى حاجة إلى أن يرزق الله ابنتك زوجاً صالحاً وتمر بقصور ، محلاة بحدائق ذات بهجة ، وقد تمر بسيارة وأنت فى حاجة إلى دراجة فاسأل الله حاجتك إذا مررت بنعم قد تختلف عن حاجتك ، وقد قال تعالى : ﴿ وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ﴾ .

٥ - أن يدعو الداعي غير متمن ما عند غيره ..

ومما يتصل بمناخ النعم وهو في ذاته من ركائز الدعاء أن يدعو الداعي غير متمن ما عند غيره مما فضله الله به عليه ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في آية (النساء ٣٢) : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ لَلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

فانظر كيف قال : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ بعد نهيه تعالى عن تمنى ما عند الآخرين وبناء عليه فلا يكون دعاء الحاسد صحيحاً ولا مظنة قبول لأن قلبه متقد بنار البغض لا يحب الخير للآخرين وهو كما قال العلماء ، إما أن يكون متمنياً لزوال النعمة وانتقالها إليه ، أو متمنياً زوالها وذهابها إلى أي أحد ، المهم أن يراها زائلة ..

هذا والشائع بين الناس أن الحسد يضر ، وما هو بضر ، إنما يضر الحاسد لا المحسود ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ أي لم يحل الحسد بين آل إبراهيم ، وما آتاهم الله ، وقوله تعالى : ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ ، مخاطباً الذين يسئ إليهم أن يروا حسنة عند المؤمنين ، فلا يتعلقن مهمل بتلك الثقافة الخطأ ، ويقول : فشلت بسبب الحسد ، وإنما فشل بسبب إهماله وتوأكله وموروث ثقافته السيئة .

٦ - أن يكون الداعي متضرعاً ..

ومعنى التضرع الخشوع والمسكنة ، وهما من أعمال القلوب ، التي يبدو أثره على الجوارح فلو سكن القلب لسكنت الجوارح ورأيت عظيم الشأن بين الناس ذا الجاه والسلطان كأنه حاجب بالباب أو عامل ضعيف ، والدليل على أن التضرع من ركائز الدعاء قول الله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ (الأعراف : ٥٥) ، وقد روى الذهبي في سير أعلام النبلاء أن أحد العلماء دعى أن يؤم المسلمين ويصلي بهم صلاة الاستسقاء ، وكان من عادته ألا يدخل على الأمراء ، فسأل الشرطي الذي جاءه كيف تركت أمير المؤمنين ، قال تركته وهو يبكي خاشعاً لله متضرعاً إليه ، فاستمهله قليلاً حتى يغير من ملابسه وقال : سوف آتي معك ليقيني بأنه إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء ، ولن تصل المسكنة إلى القلب فضلاً عن استقرارها فيه ، إلا إذا استشعر المرء أن ليس له من دون الله من واق وأنه لا حول ولا قوة له إلا به عز وجل ، إن نصره فلا غالب له ، وإن خذله فلا ناصر له من بعده ، وقد قال الله تبارك وتعالى في الآية الثانية من سورة فاطر : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

٧ - أن يكون الداعي منخفض الصوت ..

والآية السابقة من سورة الأعراف تشهد بأن خفض الصوت من ركائز الدعاء حيث قال الله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ (الأعراف : ٥٥) ، والعلماء على أن رفع الصوت بالدعاء من الاعتداء فيه ، وقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : « هل الله بعيد فتناديه أم قريب فتناجيه » فنزل قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ومعنى ذلك أن النجوى هي المطلوبة في الدعاء ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال لمن رفعوا أصواتهم للدعاء : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً » ، وقد صار رفع الصوت بالدعاء في زماننا مما عمت به البلوى وكأنه دين ، وهو يتناقض وحسن الظن بالله الذى معناه حسن الاعتقاد بأن الله يعلم السر وأخفى فلم يرفع الصوت بدعائه إذا كنا على حسن ظن به فى هذه الناحية ؟ إنما ترفع الصوت إذا كان ظنك أن من تدعوه ضعيف السمع ، لكنه تعالى السميع الذى لا تختلط عليه الأصوات ، البصير الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وقد تكون قد استمعت إلى خطيب يذكر قصة من قصص محاولة اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أخذ سيفه وسأله من يمنعك منى ، فقال عليه الصلاة والسلام : الله ، عند نطق الخطيب بلفظ الجلالة يصرخ ويرفع صوته ، مما

يفيد عند أولى الألباب أن السيف قد وقع من يد هذا الرجل بسبب علو الصوت الذى أراهبه ، لا بسبب عصمة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من الناس ، ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ .

ومما هو حرى بالذكر هذه العبارة المشرقة التى نقلها الأئمة بالتواتر عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يلحون على الله فى الدعاء ولا يسمع بعضهم بعضاً .

٨ - وأن يكون الداعى مصلحاً غير مفسد فى الأرض ..

والدليل على أن الإصلاح فى الأرض من ركائز الدعاء قوله تعالى فى آية (الأعراف ٥٦) : ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ فربط تعالى بين الدعاء وبين النهى عن الإفساد فى الأرض التى خلقها الله جميلة فرعنا فيها القبح ، وصالحة للعمران فصحرناها ، وجارية بالأنهار فأجريناها بالدماء ، وجعلها حدائق ذات بهجة وجنات ، فاقتلعنا أشجارها حقيقة بغباء ، أو حكماً بإراقة الدماء والظلم والفساد والغصب والعدوان وسوء الجيرة ، وأفسدنا آيات النقاء فلوثنا البيئة ، وكتبنا على الجدران : النظافة من الإيمان ، وتحت الجدران نفايات وأوساخ ، والمفارقة بين العلم والعمل من أسوأ ما نعانى ، ومن أشكل المشكلات التى تعترى حياتنا ..

وقد ذم الله المنافقين الذين لا يجاب دعاؤهم ، ولا تتقبل نفقاتهم لأن قائلهم يقول كلاماً كالشهد فى حلاوته ويسلك سلوكاً كالحنظل فى مرارته ، يقول ربنا تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ .

وقد مدح الله عباده بقوله عز من قائل : ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون

على الأرض هونا﴾ ، فهل يتصور من الذى يمشى على الأرض هوناً أن يكون إياها مفسداً ولخيرها مبدداً ؟ ، وقد مر صلى الله عليه وسلم ببستان على بابهِ عجوز ، قيل هى أم سليم - رضى الله عنها - ، فسألها من غرس هذا البستان ؟ مسلم أم غير مسلم ، فلما قالت : مسلم يا رسول الله ، بدا وجهه الشريف كفلقة القمر ليلة التمام من شدة فرحه وسروره وقال فيما رواه البخارى : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو حيوان أو طير إلا كان له به صدقة » ، فشأن المسلم لا سيما الذى يرجو أن يسمع الله دعاءه أن يزرع من أجل أن يأكل غيره ، وأن يغرس من أجل أن يستظل غيره ، فإن لم يستطع الزرع لم يقتلعه اغتصاباً ، وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى المفسدين إذا ماتوا أن الناس والدواب والأشجار يستريحون منهم ، فانظر إلى هذا الذى بموته تستريح الكائنات وهيات أن تستريح إلا إذا كانت حياته أذى لها ، وهنا رسالة تربية مهمة أوجهها إلى الآباء والأمهات والمعلمين ، وصناع الدراما الفاسدة خلاصتها أننا علينا أن نربى النشء على الإصلاح لا الإفساد ، فإنهم إلى الإفساد أميل ، وفى التكسير أرغب ، وللعيب بالأشياء أشهى ، وكثير من المربين يضاحكونهم على هذا ويشجعونهم عليه ويدافعون عنهم ، يقول بعضهم فليفعلوا ما شاءوا فهم لا يدركون ، ويقول آخرون لمن ينتقدونهم إنكم للحرق تستحقون ، ولا يعنى ذلك أن نقسو عليهم ، فإن الرحمة بهم من عزم الأمور ، ويكفى أنه صلى الله

عليه وسلم قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا » ، وإنما نلاطفهم وننهاهم برفق ، وخير سبيل لإصلاحهم أن نعلمهم الإصلاح بالمحاكاة والتقليد ، لا بالكلمات فإنها أكثر نفعاً وأهدى سبيلاً ، فالطفل مجبول على المحاكاة ، مفطور على التقليد ؛ لأنه غير مستقل بفكر ، وليست له عادة ، وقد قال الشاعر من قديم :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده

٩ - أن يكون الداعي محسناً غير مُسئ ..

والدليل على أن الإحسان من ركائز الدعاء الآية السابقة من سورة الأعراف ؛ حيث قال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ، والإحسان من الحسن وهو ضد القبح ، وهو في كل شيء وليس فقط في أن تُخرج من جيبك شيئاً لتعطيه محتاجاً ، كما هو شائع عند كثير من الناس ، وقد ورد فيه من حديث جبريل عليه السلام الذي رواه البخاري عن عمر - رضي الله عنه - : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، ومن عبد الله بهذا الإحسان أحسن في حركته وسكونه ، وفي بيعه وشرائه ، وفي وحدته واجتماعه بالناس ، يرى مواطن الإحسان فيسعى إليها ليدخل في إطارها ، ويعين أهلها ، ويشكرهم عليها ، ويغبط من سبقه ويأخذ بيد من رنا إليها ، ويرى مواطن القبح وكأنها شبح يتهدد البشرية وهو قادر على إزالته ؛ فلا يدخر في ذلك جهداً ولا مالاً ولا عمراً .

ومن نوادر ما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن دفن ولده إبراهيم رأى فرجة في قبره (أى فجوة) فقال للقابر : أصلحها فإنها تؤذى الناظرين ، وهي لا تضر ، فأى شعور بالحسن اتسع له صدره صلى الله عليه وسلم وهو مصاب ، ألا يتعلم من ذلك أولو الأبواب ، الذين يملكهم القبح عند المسرة فضلاً عن المضرة ، فإذا بهم يؤذون الناس بأصوات مرتفعة عند الفرح ، كما يؤذونهم بالعويل عند

القرح ، فالإحسان الذى وصف به الإسلام فى تراجم الأعلام حين يقال : فلان أسلم فحسن إسلامه ؛ يكون فى كل شيء ، من أول المظهر الحسن واللفظ الحسن ، وآية الآيات فيه ما رواه البخارى عن الحسن عن أبى الحسن عن جد الحسن صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحسن الحسن الخلق الحسن » ، ولن يكون الخلق حسناً إلا إذا فهم الناس معنى الخلق ، وهو المنهاج وأسلوب الحياة بصفة عامة ، منه أن تأكل من عمل يدك ، وأن تتأى عن الدين ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؛ لأنه مفسد للخلق ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعيز بالله تعالى كثيراً من المغرم (أى من الدين) ، فلما سئل عن هذه الكثرة قال : « لأن الرجل إذا غرم حدث فكذب ، ووعد فأخلف » ، والكذب فى الحديث والخلف فى الوعد من سوء الخلق لا من حسنه ..

ومن الخلق الحسن أن يعفو الإنسان عن ظلمه ، وأن يصل من قطعه ، وأن يعطى من منعه ، وألا يقابل الإساءة بإساءة ، قال الله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، وإنما وطنوا أنفسكم على أنه إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا » ، وكثير من الذين يدعون الإحسان على خلق الإمعة ، وقد جرى بذلك الأمثال السائرة من نحو قول الناس فى الإحسان : (إن راعيتنى قيراطاً راعيتك قيراطين) ؛ ولا بأس بذلك لقوله

تعالى : ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ ، أما المشكلة فى قولهم : (إن رششتنى بالماء رششتك بالدم) ، ومن تعليمنا الصبيان : (من ضربك فاكسر له ذراعه) ، نعلمهم المبالغة فى العدوان والإساءة .

وصور الإحسان فى الإسلام لا تتناهى ويكفيها فى فضله وعلو مرتبته أن الله يحب المحسنين ، ولا شك أن من أحبه الله أجاب دعاءه وجبر خاطره وزاده من فضله ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه البخارى وغيره : « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئين أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » ، وكأنه صلى الله عليه وسلم فصل بعد إجمال ، فبيّن أن من حسن الخلق أن تمهّد للناس سبيلاً إليك بأن تكون كريماً معهم ، طيباً فى معاملتهم ، متجنباً إساءتهم ، ساعياً فى قضاء حاجاتهم ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن شر الناس من هجره الناس اتقاء فحشه » ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس المسلم بسبّاب ولا لغّان ولا فاحش » ، ومن تفصيلاته فى حسن الخلق أن يكون المسلم على ألفة بينه وبين الناس ، فهو يألفهم وهم يألفونه ، ولن يتحقق ذلك إلا بحسن الخلق ، والتجاوز عن المسيء ، والرحمة بالجاهل ، وإقراض المحتاج ، وإنذار المعسر إلى ميسرة ، وعيادة المريض وغير ذلك من الحقوق التى أوجبها الشرع على كل مكلف نحو أخيه .

١٠ - أن يُقرّ الداعي بين يدي ربه في الدعاء بظلمه ..

والدليل على أن إقرار الداعي بظلمه نفسه بين يدي ربه من ركائز الدعاء قولُ الله ربنا في (آية الأعراف ٢٣) : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، وقد قال كثير من المفسرين : إن هذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه فتاب عليه ، فانظر كيف حملت هذه الدعامة التي يركز عليها الدعاء المستجاب وهي قول آدم وزوجه : ﴿ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ ، وكذلك قول الله تعالى في (آية الأنبياء ٨٧) : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وكذلك قول الله تعالى في (آية القصص ١٦) : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغُفِرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، فقل للذي يقول مخاطباً ربه تعالى بما لا يليق : يا رب ماذا فعلت لكي تبتلينني بكذا وكذا ، أو يشكو ربه إلى عباده فيقول : كلما خرجت من ابتلاء دخلت في ابتلاء جديد مع أنني أصلي وأتصدق وأعتمر وأقرأ القرآن ، ولم أفعل يوماً في حياتي شيئاً يغضب الله : إن ما قلته يغضب الله فقد زكيت نفسك وادّعت الكمال حيث لا كمال لبشر إلا من عصم الله من الرسل ، وقد رأيت المعصومين المرسلين يقولون : ظلمنا أنفسنا ، فهل ترى نفسك فوقهم أو أكمل منهم والعياذ بالله ؟!

ثم انظر إلى الرجل الذي كان أول من أسلم من الرجال ، أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو ثاني اثنين إذ هما في الغار ، ومن رحم الله به المستضعفين من المسلمين فأعتقهم لوجه الله ، وكان مما قاله النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « ما أحد أمنٌ على بماله ونفسه من أبي بكر » حيث سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته ، فقال له : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » ، وأنت بلا شك أقل درجة منه ، وأقل درجات من النبيين ، فكيف تفوتك هذه الدعامة التي يركز عليها دعاء كل من دعا الله وكانت سبيلاً إلى إجابة الله ورحمته ، ولا شك أن الذي يتهم نفسه بالظلم إنما يزيكها بهذا الاتهام ؛ لأن اتهام النفس سبيلاً إلى تركيتها ، فمن اعتقد ظلم نفسه سعى إلى العدل والإنصاف ، ومن توهم كمالها فلن يسعى إلى شيء ..

وإنى أرى أن الذي يتهم نفسه بالظلم بين يدي ربه قد هُدى إلى معنى التسبيح الصحيح ؛ لأن معنى التسبيح أن تنزه الله تعالى عن كل نقص لا يليق بذاته المقدسة ، وذلك في حد ذاته دعامة أخرى تُضاف إلى اتهام النفس بالظلم ليتحقق المعنى كاملاً ، وقد قال ربنا تعالى في يونس عليه السلام في (آيتي الصافات ١٤٣ و ١٤٤) : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، وقد سبق أن ذكرنا دعاءه عليه السلام حيث

قال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ، فمن قال سبحان الله قاصداً التسبيح أو التعجب دون أن يتهّم نفسه بالظلم فما سبّح الله تعالى ، وليس له وجه في التعجب .

١١ - أن يكون الدعاء عقب عمل صالح ..

ومعنى ذلك : أن الدعاء يركز على عمل صالح قدّمه الداعي ابتغاء وجه الله ، ودليل ذلك قول الله تعالى في (آيتي القصص ٢٣ و ٢٤) : ﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير : فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ .

وقد وردت نصوص صحيحة تثبت هذه الدعامة ، ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نادى معاذاً رضي الله عنه ، وقال له : « إني أحبك يا معاذ » ، قال : وأنا أحبك يا رسول الله ، فأوصاه صلى الله عليه وسلم أن يقول عقب كل صلاة : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ، ومن ذلك الدعاء عقب الصدقة ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم دعا لآل أبي أوفى عندما جاءوه بركة أموالهم ، والله عز وجل يقول : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ (التوبة ١٠٣) .

فأمره بالصلاة على المتصدقين ، والصدقة أفضل العبادات ..

ومن ذلك الدعاء عقب أداء النسك ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (البقرة ١٩٩) ، والآية بعدها يقول ربنا تعالى فيها : ﴿ فإذا قضيتُم مناسككم

فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴿١﴾ .

وقد دعا يوسف عليه السلام ربه بعد عمل صالح قدّمه من إيواء أبويه وضم إخوته إليه ، فقال : ﴿٢﴾ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴿٣﴾ ، واستذكر الدروس من الأعمال الصالحة ، وقد كان شيوخنا في الأزهر يعلموننا هذا الدعاء : اللهم ألهمني فهم النبیین ، وإلهام الملائكة المقربين ، واحفظه لي عند الحاجة إليه يا رب العالمين ، أي عند الامتحان أو عندما يستدعي الموقف أن نخرج ما أودعه الله فينا من علم ..

وقد جرت عادة العلماء الذين ألفوا الأسفار ونذروا من أجلها الأعمار أن يدعوا الله في خاتمتها ؛ لأنها بلا شك عمل صالح قدموه ، فهم يسألون الله تعالى أن يتقبله منهم عملاً صالحاً ، وأن ينفع به كل من اطلع عليه ، يقول ابن عبد البر في خاتمة كتابه (الاستيعاب ٥٢٠/٤) : « فهذا ما انتهى إلينا من الأسماء والكنى في الرجال والنساء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن روى وجاءت عنه رواية ، أو انتظم ذكره في حكاية تدل على أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مولوداً بين أبوين مسلمين أو قدّم عليه أو أدى الصدقة إليه ، وقد جاءت أحاديث عن رجال منهم ، لا يذكرون بنسب ولا كنية ، ولا يسمون ، وعن نساء لا يعرفن إلا

بجدة فلان أو عمّة فلان ونحو ذلك ، وما انتهت إلينا معرفته من ذلك كله فقد ذكرناه بعون الله تعالى وفضله ، وتركنا ذكر امرأة فلان وجدة فلان أو ابنة فلان أو عمّة فلان أو فلانة ، إذا لم يذكر لها اسم ولا كنية ، وذلك موجود في المسندات المؤلفات ، ومن وقف على ما ذكرنا في كتابنا هذا من أسماء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وما تضمنه من عيون أخبارهم فقد أخذ بحظّ وافر من علم الخبر ومعرفة الحديث لما فيه من الوقوف على المرسل من المسند ، واستولى على معرفة أهل القرن الأول المبارك ، وتلك المنزلة التي هي نصاب علم الخبر ، ومفتاح فهم الأثر وإلى الله عز وجل نرغب في الشكر على ما أولاه والتوفيق لما يرضاه ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين وجميع أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين »

فانظر إلى هذه الخاتمة الطيبة التي تجلّت فيها هذه الدعامة التي يركز عليها دعاء عالم ، وانظر إلى السرخسي (في المجلد رقم ٣٠) من موسوعته (المبسوط في الفقه) ، حيث قال : (نحمدك يا من جعلت الشريعة الغراء كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، ونصلي ونسلم على نهاية خلاصة الأصفياء وذخيرة نخبة العظماء من الأنبياء سيدنا محمد الصادق الأمين ، القائل : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وعلى آله وأصحابه الذين نجموا في جبهة الدنيا بدور هدى ، وكانوا رضوان الله

عليهم خير قدوة لمن اقتدى ، وعلى التابعين من الأئمة المرشدين القائمين بعهده ، الراشدين برشده ،) ، إلى أن قال : (وأجمعه كتاب المبسوط في فقه مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، أنزل الله عليه غيث الرحمة وشآبيب الرضوان ، وجعل دار النعيم مثواه) .

وهكذا كل من تتبع هذه الأسفار وقرأ مقدماتها التي تبدأ بنحو قولهم : « ربِّ يسرّ بفضلك » ، وتنتهي بمثل هذا الدعاء الذي يركز على جهد مُضْنٍ قد يبذله أحدهم في عشرات السنين ، فما مل الصحة وما ذم المعرفة ، ليترك لمن بعده تراثاً هو أغلى تراث ، وليست الأسود كالبعاث ، فرحمهم الله رحمة واسعة ورزقنا حب الاطلاع على ما صنفوا والإفادة مما ألفوا ، وجعل فينا امتداداً لهم نحو خطاب ديني مستنير يوقظ الهمم وينصلح به حال البلاد والعباد ..

ومن الرسائل التربوية المهمة التي ينبغي أن نربى عليها النشء أن نوجههم إلى صالح الأعمال قبل الدعاء ، لا أن نضع في أكفهم ما يسمى بأذكار الصباح والمساء ، فنلقنهم الدعاء دونما اعتماد على ركائز ، وبوسعنا أن نقول للواحد منهم وقد استجاب نداء أبويه أحدهما أو كليهما : ادعُ الله يا ولدي أو يا ابنتي ، فقد قدّمت عملاً صالحاً يركز عليه دعاؤك ، وإذا دعوناه إلى الصلاة فصلّى كذلك أو صام معنا وهو قادر على الصيام دعا عند فطره كما يدعو الكبار ، دعاؤهم مستجاب بإذن الله تعالى ؛ حيث إنه اعتمد على حرمان مشروع بالجوع إيماناً واحتساباً .

١٢ - التلبس بنعمة من نعم الله ..

ومعنى ذلك أن الدعاء حال التلبس بنعمة من نعم الله تعالى يركز على دعامة من أهم الدعائم ؛ فقد دعا كليم الله موسى عليه السلام ربه عز وجل ، وهو متلبس بنعمة الظل ، وقس عليها كل نعمة يباشرها المرء المنعم عليه فيدعو الله الذي أنعم بها عليه ويسأله مزيدها ، وما هو خير منها ..

فقل للأخت المسلمة التي ورثت عن جدتها عادة سيئة بأن تعرّى شعرها عند الدعاء ، فتعكس هذه الدعامة بأن تخلع سترها والستر نعمة ، وقل لها إن هذا قبيح يباعد بينها وبين دعائها الذي أرادت ، ولو أنصفت لبالغت في الستر عند الدعاء حتى تكون متلبسة بالنعمة ، وقد ورد هذا في الكتاب العزيز ، حيث قال الله عز وجل في آيتي (الزخرف ١٣ و ١٤) : ﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .

فلا بد أن يكون هذا موجوداً ، وهو ما سخر الله من الدواب وغيرها لطفاً بعباده ورحمة بهم ؛ حتى يتلبس العبد بنعمة ربه عند تسيّحه وذكره ودعائه ، ومن ذلك قول الله تعالى في آيات (الواقعة ٦٨ - ٧٠) : ﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون أن أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناء أجاجاً فلولاً تشكرون ﴾ .

ما قال الماء الذى ترون ولا الذى به تغتسلون ، وإنما ذكر أشرف ما فيه وأشد الحاجة إليه ، وهو الشرب ، فهل خطر على بال شارب للماء القراح أن يدعو الله تعالى ، الذى أنزله من السماء عذباً ولو شاء لجعله أجاباً ..

وأرى أن التلبس بالنعمة يعين على خفض الصوت بالدعاء ؛ لأن الإنسان إذا دعا وهو فى الظل على خلافه حين يدعو وهو فى الحر ، وحين يدعو وهو ريان يختلف عن نفسه حين يدعو وهو عطشان .

كذلك يخرج الدعاء على ارتياح ، وقد روى أن أحد تلامذة الحسن البصرى رضى الله عنه فهم خطأ قول الله تعالى فى آيتى (النازعات ٤٠ و ٤١) : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ ، وعاد من درس الحسن وكان فى حاجة إلى الماء ، ومد يده إلى قارورة عنده فيها ماء بارد ، وقبل أن يبلغها فاه تراجع وخاطب نفسه قائلاً : هواك فى الماء البارد ، لأحرمك ، ووضع الماء على النار ليشربه ساخناً حتى يخالف هوى نفسه ، فكان ما كان من تقرح فى شفتيه وتورم فى فمه فسأت حالته وانقطع عن درس الحسن الذى علم بما حدث له فزاره وقال له : لقد فهمت خطأ ، يا بنى إنك إن شربت الماء بارداً وقلت : الحمد لله ؛ قلتها بارتياح ، وإن شربت الماء يغلى وقلت : الحمد لله ؛ قلتها بكظافة ، والله تعالى يحب أن يسمعها منك بارتياح . فما بالك بالذين ينفخون عند الدعاء ، ويخرجون زفرات الأسى وكأنهم متبرمون لا داعون ، ومستوحشون لا مستأنسون ، أمن نعمة ربهم يسخرون ؟! أو إياها يستقلون ؟! وهى والله عظيمة .

١٣ - أن يأخذ الداعى بالسبب ..

ومن ركائز الدعاء ودعائمه : أن يأخذ الداعى بالسبب الذى يحقق الله به دعاءه ، فطالب المال يتقى فيه ربه ويصل به رحمه ، عليه أن يسأل الله المال وهو يعمل ، يزرع أو يتاجر أو يصنع أو يضارب ، فيرتكز دعاءه على سبب يحقق الله تعالى به دعاءه ، وطالب الولد الذى يريده امتداداً له فى عبادة الله ودعوة طيبة حين يلقي الله عليه أن يتزوج أولاً ، فإن جاء الولد فيها ونعمت ، وإلا فلله حكمة بالغه يرضى بها ، فتقر عينه بغير الولد الذى قد يكون سبباً فى إرهابه وكفره ، قال تعالى : ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ .

وطالب البيت الواسع عليه أن يدخر ثمنه وأن يسعى فى طلبه ، والدليل على هذه الدعامة قول الله تعالى فى سورة (القمر الآية ١٣) : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ وذات الألواح والدسر هى السفينة التى صنعها نوح عليه السلام بيديه ، ولم تكن سفينة هابطة من السماء أو لمساكين يعملون فى البحر ، صنعها بأمر الله الذى أوحى إليه : ﴿ أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ لتكون له سبباً يوم يدعوه : ﴿ أنى مغلوب فانتصر ﴾ ، وفى هذا درس عظيم للذين يهملون الأسباب التى هى سبب النجاة إذا أراد الله ، وبعضهم يباغتك بقوله : إن الله على كل شىء قدير ، غير متدبر

سنة الله في الكون ، والتي قال فيها : ﴿ وثن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ، ومن سنته في كونه أن جعل لكل شيء سبباً ، وقد قال ذو القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً ، حين سأله الذين لا يكادون يفقهون قولاً : أن يجعل بينهم وبين الظالمين سدا : ﴿ فاعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطراً فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ .

فجعل من القوة سبباً لبناء السد الذي يمنع الظالمين من العدوان على الضعفاء ، وقال : ﴿ هذا رحمة من ربي ﴾ ولم يدعُ ذو القرنين ، أو يجمع الناس وراءه صفوفاً ليقولوا : اللهم أهلك الظالمين ، وأعم أعينهم عنا ، واجعل كيدهم في نحورهم ، وإنما ذكر الله الذي مكنه وهياً له السبب ، وأخذ به ؛ فتحقق مراد الناس على يديه ..

فقل لطالب العلم الذي يسأل الله درجة امتياز : إن السبب الذي هياه الله لك كتاب ينبغي أن تلزمه وأن تطيل العهد به وأن تستثني حياتك منه لا أن تجعله استثناء من حياتك ، فتختلف إليه بين الحين والحين ، كلما راجعت شيئاً أنسيته لطول العهد بغياك عنه ، وساعة تعكف عليه فيصير ملازماً لك ادعُ الله أن يجعلك من المتقدمين ؛ لأنك أخذت بالسبب الذي يحقق الله به دعائك .

١٤ - ألا يكون الداعي عنيداً لآيات ربه ..

لا شك أن طاعة الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم من أهم ركائز الدعاء ، والذين يعاندون آيات ربهم ويصرون على مخالفتها أتباعاً لموروث بغيض من العادات والتقاليد دعاؤهم غير مستجاب ، والدليل على ذلك آيات المدثر (١١ - ١٦) حيث يقول الله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً وبنيين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ .

ما قال الله تعالى : كلا إن عنده ما يكفيه ، ولا كلا إنه طماع ، وإنما قال : ﴿ كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ ، ومعنى كلا هنا : لا ، أي : لا أزيده كما يحب لأنه عنيد لآياتنا ، ولو لم يكن عنيداً لزدناه ، وهذا من أقوى الأدلة التي تزيد المؤمن يقيناً بربه ؛ من أنه تعالى قادر على أن يعطي العبد ما سأل من زيادة على ما عنده فإن ذلك لن ينقص من ملكه تعالى شيئاً ، بشرط ألا يكون عنيداً لآيات ربه ..

فإن قال قائل إن هذه الآيات في كافر أصر على الكفر ، فهل المؤمن يكون عنيداً لآيات ربه ؟ فالجواب : أن هناك صفات مشتركة بين المؤمنين

والكافرين ، وعلى المؤمنين أن يتخلصوا منها ؛ حتى يجيب الله دعاءهم ،
والعناد متوفر عند كثير من المسلمين ، ألا ترى إلى الثقافة الشائعة من قول
الشباب الذين يُدعون إلى الصلاة : والله لن نصلى ، وإلى قول الظالم لأخته
فى الميراث وقد جاءت تسأله حقها الذى شرعه الله لها : والله لن أعطيك
شيئاً واضربى رأسك فى أعنى جدار ، وإلى الذين يُصرون على الهجر
الذى حدد الشرع له ثلاث ليال تهدأ فيها النفوس ثم تعود إلى الوصال
ويقسمون بالله ألا يصلوا من هجروه حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط أو
يبيض القار ويشيب الغراب ، بل إن من الناس من عهد عنه المخالفة لذات
المخالفة ، إن قلت له : يميناً ، قال : يساراً ، وإن دعوته إلى فضيلة ؛ فعل
رذيلة ، وكل ذلك من أخلاق الكفرة الفجرة الذين حين سألوا الله سألوه
على غير السوية والطبيعة البشرية فقالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

١٥ - أن يتوسل الداعى إلى الله تعالى بفضله عليه ..

ومن ركائز الدعاء أن يتوسل الداعى إلى الله تعالى بفضله عليه ، فهو
يتوسل إلى الله بالله ، والدليل على ذلك قوله تعالى فى سورة (مريم
الآية ٤) : ﴿ قال رب إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن
بدعائك رب شقياً ﴾ .

فقوله : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ توسل إلى الله بفضله عليه ، أن
أسعده قبل هذا الدعاء بإجابة ما دعا من قبل ، وأنا أعبر عن ذلك بلفظة
كما التى غابت عنا إلا من رحم الله منا ، أى أن كثيراً من الذين يدعون الله
لا يقولون : كما ، وكما هذه من ركائز الدعاء ، ومعناها : أن يقول الداعى
يارب كما سترتنى فيما مضى استرنى فيما بقى .

انظر إلى هذا الرجل الذى رزقه الله ثلاث بنات ، تزوجت اثنتان وبقيت
ثالثة ، تراه يدعو قائلاً : اللهم ارزق فلانة أى الثالثة زوجاً صالحاً ، ولو
فطن إلى هذه الدعامة لقال : اللهم كما رزقت ابنتى اللتين تزوجتا زوجين
صالحين فارزق الثالثة أختهما بزواج صالح ، والدليل على ذلك قول الله

تعالى في سورة (يوسف الآية ٦) : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ .

١٦ - أن يكون الداعي شاكراً لله ..

ومن ركائز الدعاء أن يكون الداعي شاكراً لله ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في سورة (إبراهيم الآية ٧) : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ ..

وكثير من الناس يظن أن الشكر باللسان ، ألا ترى إلى أمم منهم يقبلون أكفهم ظاهرها وباطنها قائلين : الحمد لله والشكر لله ، وليس هذا حمداً ولا شكراً ، فقد قال الله تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ ، ما جاء النظم الجليل ب : قولوا آل داود شكراً ؛ لأن الشكر يكون بالعمل ومن جنس النعمة التي أنعم الله بها عليك ؛ فشكر نعمة العلم أن تعلمه وألا تكتمه ، فمن كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار حتى ولو شكر الله باللسان ألف مرة في كل يوم ، وشكر نعمة المال أن تخرج زكاته وأن تتصدق منه ، وأن تعلم أن للإسلام منهاجاً فيه يمكن أن نسميها رسالة المال في الإسلام ، من تعمير الأرض واستثماره في الطاعات ، وقد ورد من حديث أبي كبشة الأنماري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل في أعلى المنازل من رُزق المال والعلم ، قال : « فهو يتقى فيه ربه ويصل به رحمه » .

وشكر نعمة الصحة أن تستثمرها في عملٍ صالح ، وأن تُعين بها ضعيفاً تحمله ، وأن ترفع بها أذى عن طريق الناس ، وأن تصوم النافلة وتهجد بالليل ، وهكذا يكون الشكر من جنس النعمة شكراً حقيقياً بالعمل لا بالكلام .

١٧ - أن يكون الداعي من التائبين ..

وكون الداعي من التائبين دعامة من دعائم الدعاء ، والدليل عليها قول الله تعالى في سورة (الأحقاف الآية ١٥) : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ .

فانظر كيف ربط الدعاء بركيزته ألا وهي التوبة ، إذ كيف يتصور قبول دعاء من يُصر على فعل المعاصي ، ولا يتوب ، والله تعالى يقول في عباده المتقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۖ ﴾ .

وقد قال العلماء عبارة نادرة جميلة هي : أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار ، أى أن الكبيرة يغفرها الله لمن تاب إليه توبة نصوحاً ، وأن الصغيرة مع الإصرار كبيرة .

وللشيطان مدخلٌ في التوبة معروف يقوم على التسويف ، ألا ترى إلى وسوسته إلى إخوة يوسف ونزغه بينه وبينهم : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ

أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴿ فمنَّاهم بالتوبة بعد الجريمة ، والصلاح بعد الفساد ، وكثير من الناس لا سيما الشباب يزعمون أن في الآجال فسحة ، وأنهم سوف يكونون من المهتدين بإذن الله ، ومن الفتيات من يربطن بين ستر العورات وبين أعمال يعملنها في المستقبل ؛ بأن تقول الواحدة : بعد أن أتزوج ، وتقول الأخرى : بعد أن أحج أو أعتمر ، ولا يدري واحد من هؤلاء متى تأتية المنية ، ولو فطن لعجل بالتوبة التي هي كالشكر لا تكون باللسان ، من نحو قولنا في كل مجال وميدان خصوصاً عند عقد الزواج : تبنا إلى الله ورجعنا إلى الله ، وندمنا على ما فعلنا ، وعزمنا على أننا لا نعود إلى المعاصي أبداً ، وقلوبنا غافلة ؛ ونصر على ما نحن فيه من فعل المنكرات ، وسيئ العادات ، وقد قال العلماء : إن التوبة باللسان توبة الكذابين ، والاستغفار باللسان استغفار الكذابين .

١٨ - التقوى ..

والتقوى من أهم دعائم الدعاء ، وركائزه ولا أدل على ذلك من قول الله تعالى في سورة (المائدة الآية ٢٧) : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ .
والتعبير بـ (إنما) كما قال الإمام عبد القاهر الجرجاني : لا يتأتى إلا من بليغ ، فهي أبلغ أدوات القصر ، وكأن الله تعالى لا يتقبل دعاء أحد إلا إذا كان تقياً .

ومعنى التقوى بأسلوب مُيسَّر : أن تتخذ لنفسك وقاية من غضب ربك وعذابه ، ولن تكون تقياً وأنت تشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، أو أن تكون مُهملاً لعبادة شرعها من أجل أن تتعبده بها ، أو تخالف سلوكاً وجَّهك إليه أو سبيلاً أراد لك أن تسلكه ، ولن تكون تقياً إلا إذا كنت في السرِّ كما تكون في العلن ، وتكون متقناً لعملك مع وجود الرقيب من البشر وعدم وجوده ، والكتاب العزيز حافلٌ بسياق التقوى ، ومن ذلك قول الله تعالى في آية (البقرة ١٧٧) وهي من الآيات الجامعة المانعة ؛ حيث يقول الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

ومن معطيات الآية الكريمة أن تقوى الله لا تكون بالشكل ولا بالحركات ؛ فالله عز وجل لا ينظر إلى صورنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا ، والتقوى محلها القلب كما قال صلى الله عليه وسلم مراراً وأشار إلى قلبه وقال : « انتقوى ههنا » ، وهى تتجلى بلا شك فى الجوارح عملاً صالحاً وبراً وإحساناً ، فإن القلب بالنسبة إلى الجوارح كالملك بالنسبة إلى الجنود ، يأمرهم فيطيعون ويستجيبون لأمره ، وإذا استقرت التقوى فى قلب عبد ذكراً كان أو أنثى وجدت يده لا تمتد إلا بخير ورجله لا تتحرك إلا فى معروف ، وعينه لا تنظر إلى سواة ، وفرجه لا يفض خاتماً إلا بحقه ، جاء فى حديث البخارى الذى عنون له بحديث الغار قول الفتاة التى أبى من أحبها أن يعطيها مالا سألته إياه إلا أن يقعد منها مقعد الرجل من زوجته : « اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه » .

ويمكن أن نضع عشرات الأمثلة لمن يريد أن يكون تقياً فى ضوء مثل هذه العبارة ، وفى ضوء الكتاب والسنة ، ومن ذلك قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ ، أى قولاً صادقاً يعول عليه لا لغواً ولا مزاحاً ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لغد ﴾ ، فمن قدم لنفسه عملاً ينفعه بعد الموت كان تقياً ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ ، فإن تذكرت وعيد الله على الذنب الذى أنت مُقبل عليه فردعك هذا التذكر ورجعك كنت من المتقين ، وقول الله تعالى فى سورة مريم : ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ ، أى إن كنت من المتقين وذكرك من تحاول العدوان عليه بتقوى الله عز وجل نأيت بنفسك عن ظلمه ، بل شكرت له أن ذكرك بما فيه نجاتك ، أما غير التقى فإنه إن قيل له : اتق الله ؛ أخذته العزة بالإثم فتمادى فى غيه ، وفعل المنكر وباء بغضب الله وسخطه .

١٩ - الصدقة ..

والصدقة من أهم ركائز الدعاء ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في سورة (الإنسان ٨ - ١٢) : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ .

فانظر كيف حقق الله رجاء الأبرار من عباده الذين ارتكز رجائهم على إطعام الطعام فنجاهم من العذاب وجزاهم جنة وحريرا ، وفي البخارى حديث النبى صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمره » ، فمن قال : اللهم انى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل فليعلم أن الصدقة من أفضل الأعمال والعبادات التى تحقق له دعاءه ، وفي الصحيح أيضا يقول صلى الله عليه وسلم : « داووا مرضاكم بالصدقة » ، فمن قال : اللهم اشف مريضى وارتكز دعاؤه على صدقة يقدمها كان دعاؤه مقبولا ، وشفى الله مريضه ، فبدله دما خيرا من دمه وجلدا خيرا من جلده ، وقد ثبت فى الكتاب الكريم أن الصدقة أفضل العبادات وأهم الركائز ، قال الله

تعالى فى آية (البقرة ٢٧٤) : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وعجز هذه الآية - أى آخرها - هو آخر الآية (١٧٠ من سورة آل عمران) وذلك قوله تعالى فى الشهداء : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وعلى ذلك أقول إن للمتصدقين منزلة الشهداء ، فإذا كان العجز يساوى العجز ، فإن الصدر يساوى الصدر تطبيقاً للمسلمة الرياضية التى تقول :

إذا كان : $A = B$ و $B = C$ ، فإن : $A = C$.

٢٠- مدح الله تعالى ..

ومدح الله عز وجل من أهم دعائم الدعاء وركائزه ، ومعناه حسن الثناء عليه ، ودليل ذلك قوله تعالى في (سورة يوسف الآية ١٠١) : ﴿ فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ ، وقد ورد في الصحيح أن سيد الاستغفار أن تقول : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وقد ورد من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على رجل يدعو فيقول : « يا من لا تخالطه الظنون ولا تراه العيون ويا من لا توارى عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، ويا من يحيط علمه بعدد ورق الأشجار وما يأتي عليه الليل والنهار اجعل أحسن أعمالى خواتيمها وأسعد أيامى يوماً أنقائك فيه » ؛ فكافأه صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه ذهباً وقال له وهو يعطيه : « أتدرى لم أعطيك هذا الذهب ؟ » فقال : للرحم التي بيننا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن للرحم لحقاً ، ولكني أعطيك هذا الذهب لحسن ثنائك على الله تعالى » .

وقد ورد من أكثر من طريق قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب المدح » ، وفي رواية : « لا أحد يحب المدح كما يحبه الله » وذلك لأنه أهل له ؛ فهو المتفرد بالكمال وهو الله ذو الجلال الذي أتقن كل شيء خلقه ، ومن أحسن من الله صبغة ؟ .. قدر فهدى وأخرج المرعى فجعله غناء أحوى ، وقدر الليل والنهار ، وبيده تصريف الرياح ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويقبل توبة التائبين ويجيب دعاء الراغبين متى استقاموا على الطريقة واتبعوا صحيح الملة وفقهوا في الدين ، وهو رب العالمين لا ينسى من عصاه فكيف بمن أطاعه .

٢١- القنوت ..

والقنوت من ركائز الدعاء ودعائمه الثابتة في الكتاب العزيز ، قال الله تعالى في سورة (الزمر الآية ٩) : ﴿ أَمِنَ هَؤُلَاءِ أَنْاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

فمن رجا رحمة ربه أى دعاه رحمته وسأله إياها وخاف عذابه فليرتكز دعاؤه على القنوت وهو حسن العبادة ، وبذل أقصى الطاقة فيما يقرب من رضوان الله تعالى ونعيمه ، وقد فسر هنا بقيام الليل سجودًا ، وخضوعًا وقيامًا يطول ، تورمت بسببه قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم شكرًا لله تعالى ، وهو فى الرجل أوضح ؛ لقدرته عليه من المرأة ، وقد قال الله تعالى فى مريم عليها السلام فى سورة (التحريم الآية ١٢) : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ ، أى كانت فى عبادتها لله كأنها الرجل القانت الباذل أقصى جهده فى الطاعة ، وقيل على التغليب ، أى تغليب الذكور على الإناث ولا يخلو ذلك من مدحها وحسن عبادتها ، وكفاها شرفاً أنها

أحصنت فرجها فلم يحصنه زوج ، وإنما حصنه القنوت ، وما أكثر اللواتى هن فى حاجة إلى هذا الدرس العظيم ، بل ما أحوج الناس جميعاً إلى قنوت يكون ركيزة لدعاء مستجاب .

٢٢- الصبر ..

والصبر من ركائز الدعاء المهمة ومعناه حبس النفس عن الشكوى إلا لله وضبطها وعدم تفلتها ، وخروجها عن ميزان الاعتدال الذي يثبت الرضا ويسعى من أجل إزالة البلوى على ثبات ورشد لا على تفكير في المصيبة أو ردة إلى حداثة عهدها ، فإذا بالدموع تنهمر بعد أن جفت والضلوع تنهاوى بعد أن قويت ، وإذا بجميع المظاهر التي نراها اليوم قد تجلت ، من ضعف وخور وسكينة واكتئاب وعزلة للناس وحركة الحياة ، وما هكذا الصبر الذي يحبه الله للصابرين ، وقد قال فيه في سورة (آل عمران الآية ١٤٦) : ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ، أى أن الصابرين الذين يحبهم الله عز وجل ويجب دعاءهم ويكشف عنهم كربهم والابتلاء الذى أصابهم هم الذين يكونون أقوياء برغم الشدة ، منطلقين برغم دواعي القعود ، فتحسبهم على سلامة من المصيبة مع أنهم مصابون لأنهم بالله معتصمون ، ولحكمه راضون ، وقد قال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ .

ولا يتعارض مع الصبر أن تذرف العيون أدمعاً ، وأن يصيب الحزن أضلعاً ؛ فالإنسان ضعيف ، لكن المهم ألا ينطلق لسانه بسوء ، لقوله صلى الله عليه وسلم يوم مات ولده إبراهيم : « إِنْ الْعَيْنُ لَتَدْمَعُ وَإِنْ الْقَلْبُ لَيَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا لِفَرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ » .

ولولا الصبر ما احتملت أم سليم أن تكتُم نبأ وفاة ابنها حين عاد زوجها ، وسألها عنه وقد تركه عليلاً : كيف حال ابنا ؟ ، فقالت : هو فى أسكن أحواله . وكان قد مات ، فورّت وما كذبت فإن من مات فقد سكن ، لكن الرجل يفهم منها أنه قد هدأ من مرضه ، وهيات له العشاء ونفسها ، حتى كانا عروسين فى تلك الليلة ، فلما أصبحا أخبرته وبأسلوب موفق أيضا ، ورد فى إحدى الروايات أنها قالت : « إِنْ قَوْمًا أَعْطُوا أَمَانَةَ فَلَمَّا سَأَلُوها غَضِبُوا فَمَا تَقُولُ فِيهِمْ ؟ قال : قوم سوء ، قالت : أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا أَعْطَاكَ أَمَانَةً فَجَاءَ لِيَأْخُذَهَا تَغْضَبُ ؟ ، قال : لا ، قالت فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اسْتَرَدَّ أَمَانَتَهُ وَالْوَلَدُ قَدْ مَاتَ ، فَلَمَّا حَكَى ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَّرَهُ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَيُخْلِفُ عَلَيْهِمَا خَيْرًا مِنْهُ وَقَدْ كَانَ ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْقَائِلُ : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ .

٢٣- الصدق ..

والصدق من دعائم الدعاء وهو من صفات الأنبياء ، والأنبياء دعاؤهم مستجاب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ، ويمتد معنى الصدق من القول إلى صدق الإيمان في القلب الذي يتجلى عند الاختبار ، ألا ترى إلى قول الله تعالى في صدر سورة العنكبوت : ﴿ ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

فأية الآيات في الصدق أن تدرك أن الدنيا دار الأغيار وأن الأيام دول بين الناس فلا تفتن عند مصيبة ، ولا تغتر عند نعمة ، وهناك فرق بين قلب منافق وقلب مؤمن ؛ الأول تحول حين رأى الأحزاب ، وقال : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا ، والمشهد هو هو عند المؤمنين الذين قالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا ﴾ ، قال الله بعدها في سورة الأحزاب : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ .

٢٤- الاستغفار ..

والاستغفار من ركائز الدعاء ، ومعناه : سؤال الله المغفرة من حيث سلوكك ودروبها لا بقولك أستغفر الله أُلوف المرات ، فمن صلى فقد استغفر أى طلب المغفرة بصلاته ، ومن صام رمضان فقد استغفر بصيامه ؛ ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه » ، والدليل على أن الاستغفار من دعائم الدعاء قول الله تعالى في آيات سورة (نوح ١٠ - ١٢) : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا ﴾ .

ولا يتصور عاقل أن نبيًا من أنبياء الله يسأل قومه أن يستغفروا ربهم بمعنى أن يقولوا نستغفر الله العظيم ، حيث إنهم كفرة ، فالاستغفار المتصور أن يؤمنوا ؛ فمن آمن كان مستغفرًا أى طالبًا مغفرة الله ؛ لأن الله يغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين ، وقد ربطت آيتا (آل عمران ١٦ - ١٧) بين الدعاء وركائزه الثلاث السابقة وغيرها مما سبق من القنوت والصدقة ، قال الله تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا

وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين
بالأسحار ﴿٥٨﴾ ، وخصت الأسحار بالذكر لأنه لا يقوى على الاستغفار فيها
إلا مجاهد نفسه طارح مضجعه متفكر في آخرته .

٢٥ - التفكير في خلق السماوات والأرض ..

والتفكر في خلق السماوات والأرض من دعائم الدعاء ، والدليل على
ذلك قول الله رب الأرض والسماء ، في آية (آل عمران ١٩١) : ﴿الذين
يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات
والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار﴾ .

والتفكر في خلق السماوات والأرض الذي هو من ركائز الدعاء من
مقتضاه أن يزداد المتفكر يقينا بالله الذي رفع السماء بغير عمد يراها
وجعلها سقفا محفوظا وزينها للناظرين ، وحفظها من كل شيطان رجيم ،
وجعل الجبال على الأرض أوتادا ، وفجر فيها أنهارا ، وأخرج منها ماءها
ومرعاها ، وسخر كل شيء لعباده كي يعبدوه وحده لا شريك له ويتوكلوا
عليه دون سواه ، وقد ربطت الآية بين التفكير وبين الدعاء ، حيث قال
الذين تفكروا : قنا عذاب النار .

ومن مقتضاه أن يستثمر العبد المؤمن هبات الله ونفحاته التي أودعها في
الآفاق وفي الأرض وقد نمنا عنها طويلا ، وصحا لها غيرنا فتقدم وتأخرنا
وازدهر وساءت أحوالنا ، وما كان ينبغي لهم أن يظهروا علينا ؛ فقد قال

الله تعالى : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ .

تفكر غير المسلمين في خلق السماوات والأرض فأبدعوا تقنيات صرنا لها مستهلكين ، وتفكر المسلمون في خلق السماوات والأرض فأبدعوا شاعرين يصفون الليل وطوله ، والنهار وسوءه ، فعزفوا عن الجد ، وصاروا أصحاب كلام .

٢٦- القول السديد ..

والقول السديد من دعائم الدعاء ودليل ذلك قول الله تعالى في سورة (الأحزاب الآيتين ٧٠-٧١) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ .

والقول السديد يشمل الجد لا الهزل ، والنصح لا التخلي ، وشهادة الحق لا الزور ، وألا تأخذه في الله لومة لائم ، والعدل والإنصاف ، والاختصار ما وجد إليه سبيلا ..

وقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد الكلام كسر دكم وإنما كان يقول الفصل الذي يحفظه من سمعه » .

وفي سياق حديثه صلى الله عليه وسلم بنعمة ربه عليه يقول : « أوتيت جوامع الكلم » ، ومعناه باختصار شديد : القول الموجز الذي يشتمل على معان كثيرة ، أو بعبارة العلماء الذي يصير معظمه كالمثل السائر ، ومن

ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ،
 وقوله صلى الله عليه وسلم لمن استنصحه : « قل آمنت بالله ثم استقم » ،
 وقوله صلى الله عليه وسلم لآخر : « عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك
 به » ، وغير ذلك من الأحاديث التي ترد فيها الألفاظ معدودة ، والمعاني
 أكثر من أن تحصى .

وقد تلونت أساليب الناس في زماننا فغاب عنها القول السديد ودخلتها
 ألفاظ تدل على الانحراف ، وهى فى ذاتها تصلح أن تكون بحثاً مستقلاً ،
 مثل قولنا : يعنى ، وجائز ، ... وغيرهما من الألفاظ التى تدل على عدم
 القطع والجزم وهما من مقتضيات القول السديد ، وقد روى أن عمر رضى
 الله عنه سأل شائباً عن طريق فرد عليه بقوله : الله أعلم ، فعلاه بالدرة ، وقال
 له : لقد شقينا إن لم نعلم أن الله أعلم ، إذا سئل أحدكم عن شيء فليقل
 أدرى أو لا أدرى .

وشائع بين الناس قول من قال : من قال لا أدرى فقد أفتى ، وأنا أقول :
 ينبغى عليه أن يقول لسائله لا أدرى الآن واسألنى غداً ، فليس من سديد
 القول أن تلزم لا أدرى عمرك وإنما منه أن تعد من سألک بالجواب بعد
 حتى لا تظل عمرك تقول لا أدرى ، وقد سأل عمر رضى الله عنه رجلاً
 فقال : لا أدرى ، فرد عليه بقوله : لا دريت ، ومعنى ذلك أنه يريد منه أن

يدرى ، يحثه على المعرفة ، وهو القائل للشاب الذى ضربه : إذا سئل
 أحدكم عن شيء فليقل أدرى أو لا أدرى .

هذا وقد عهد عن أناس كثيرين أنك لا تستطيع أن تأخذ منهم جواباً
 شافياً أو ردّاً قاطعاً ، أو على حد تعبير العوام (عقاد نافع) ، معنى ذلك
 أن هؤلاء على مبعدة من القول السديد الذى ليس منه أن تقول : إن شاء
 الله دون أن تبين إن كنت فاعلاً أو غير فاعل ، ومثلها قول كثير من الناس :
 ربنا يسهل ، الذى قد يوحى بالبشرى لكنه ليس قولاً سديداً ، لأن من آيات
 القول السديد أن يكون كلامك مفيداً ، دالاً على ما استقر فى خاطرك ،
 وتكون فى داخلك من عزم على فعل أو ترك .

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من غفار كان يمتلك البئر
 التى استعذبها المهاجرون ، والمعروفة ببئر رومة ، فقال له : « اجعلها
 للمسلمين ، ولك عين فى الجنة » ، فقال الرجل : لا أستطيع يا رسول
 الله ، فهى قوتى وقوت عيالى ليس عندى غيرها ، فاشترها عثمان رضى
 الله عنه .

وكذلك حين أعتقت بريرة ، وكان لها الخيار فى أن تبقى على ذمة
 زوجها الذى ما زال عبداً ، وكان اسمه مغيثاً ، وكان يحبها ، فاختارت

فراقه ، فلما رأى صلى الله عليه وسلم كلفه بها ، وكان يطوف وراءها في شوارع المدينة ، فاستعطفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألها أن تعود إليه فقالت : أمر يا رسول الله أم شفاعة ، فقال عليه الصلاة والسلام : بل شفاعة ، فقالت : لا حاجة لي فيه ، ما قال صلى الله عليه وسلم : يعنى ! ، وما قالت له بريرة إلا القول السديد البين والمبنى على إيمان ، فهي تعرف الفرق بين الأمر والشفاعة ، فلو كان أمراً لاستجابت ، وما نغصها هواها الراغب في فراقه ، بل كانت ستجد فيه الخير لا محالة ، كما قالت العاقلة الرشيدة المشهود لها بحسن العقل والإسلام ، فاطمة بنت قيس : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول له خطبني معاوية وأبو جهم فأيهما أختار ، فقال عليه الصلاة والسلام : أما معاوية فصعلوك لا مال عنده ، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه (إما لكثرة سفره أو لضربه النساء) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لها : تزوجي أسامة ، قالت فكرهته ، فلما ذكره صلى الله عليه وسلم تزوجته فإذا فيه الخير . وصدق الله العظيم إذ يقول في آية (الأنفال ٢٤) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ .

والأمثلة على القول السديد لا تنتهى ، وكذلك الأمثلة على ما يقابله من القول غير السديد ، وقد شاع ذلك مع الأسف الشديد في كتابات من

حملوا أعلى الشهادات ، فإذا بك تقرأ أسفاراً لهم كتبت بالعربية وما هي بعربية ، فلا تخرج منها بجملة مفيدة ، وهذا يجعلك تقول : صدق الله ربنا إذ يقول : ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ ، فهناك لسان عربى غير مبين ، ومنه تلك المؤلفات التى كتبت بحروف الهجاء العربية ولا تخرج منها بفائدة ..

وفى حديث فاطمة بنت قيس بين لها النبى صلى الله عليه وسلم أن الخاطبين لا يصلحان ، وهذا من قبيل الإبانة لا من قبيل الغيبة ، ووجهها إلى من يصلح لها وتصلح له ، دون أن يقول لها مثلاً القول الشائع على ألسنتنا : صل صلاة الاستخارة .

٢٧ - الرضا ..

والرضا من دعائم الدعاء المستجاب ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في (سورة التوبة ٥٩) : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ .

فلا يحسن الدعاء بخير والقلب ساخط عن واقع يعيشه الداعي ، وعن نعمة يستمتع بها ، ويظن أنها من الدون ، ومن نوادر التفاسير المبنية على اللغة أن قول الله تعالى : ﴿ وتسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أن معناه أن الله تعالى سوف يعطيه لأنه يرضى ، فجملة ترضى خبر لمبتدأ محذوف بعد الفاء ، تقديره وتسوف يعطيك ربك فأنت ترضى ، فمن رضى بما هو فيه متطلعا إلى خير منه أعطاه الله ، ومن سخط لا يعطيه ، وقد روى البخارى فى صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم دخل يوماً بيته وسأل أهله طعاماً فقيل له ليس عندنا إلا الخل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم الإدام الخل » ، ومن المعهود عنه صلى الله عليه وسلم أنه ما ذم طعاماً أبداً ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه دون أن يذمه ، بل إن الذى لم يتعوده وكانت نفسه تعافه وهو الضب ، أكل على مائدته وهو راض ، فلم يسخط ولم يسخر ، ولم يقل : كيف تأكلون هذا وتستمرئونونه ؟ كما يقول كثير من الناس فى زماننا لإخوانهم الذين يلتهمون صنفاً لا يحبونه .

٢٨ - الاضطرار ..

والاضطرار من ركائز الدعاء ، ومعناه أن يفتقد الصالحون الأسباب فالمضطر الذى يستجيب الله دعاءه هو الصالح من الناس الذى فقد من الناس النصير ، ومن الأسباب الوفير ، الذى يحقق له بلوغ غايته ، وتحقيق حاجته ، ذكر ذلك ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٧١ .

والدليل على أن الاضطرار من ركائز الدعاء قول الله تعالى فى سورة (النمل الآية ٦٢) : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ ..

وقد خلق الله الأسباب وهبها لبلوغ الغايات بتوفيق منه جل وعلا ، وإلا فلا ينفع السبب ، ولا يتحقق الأرب ، والله در القائل من قديم :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

والذى شرع للمضطر غير المتجانف لإثم أن يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به لأن الضرورات تبيح المحظورات ، يتقبل دعاء المضطر الذى لا يجد حيلة ولا يهتدى سبيلاً .

٢٩- الظلم ..

والظلم ظلمات وعاقبته سيئة في الدنيا والآخرة ، والله لا يحب الظالمين ، ويجب دعاء المظلومين ، وقد ثبت أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، وقد قال لها لأنصرك ولو بعد حين ، وفي هذه الركيزة إشكالية مهمة ، هي التأكد من أنك بالفعل مظلوم ؛ فإن كثيرا من الناس يقولون نحن مظلومون ، وهم في الحقيقة ظالمون ، فإذا تحررت الصديق وتبين لك أنك بالفعل مظلوم كان عليك وفق الشريعة الغراء أن تسعى لرفع الظلم عنك وأنت تدعو ، بأن تتجه إلى القضاء إن لم يتسع لك ولمن ظلمك مجلس أقرب من القضاء وأسرع ، فإن لم يكن بد من التقاضي فلا بد أن تقاضى من ظلمك لأن القضاء في الإسلام مشروع لفض المنازعات ورد المظالم إلى أهلها .

ولا تقل بأنك مظلوم إن شتم أحد أباك وأمك وقد شتمته قبل أن يشتمك ، فقد ورد في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الكباثر أن يلعن الرجل والديه » ، فلما قال الناس كيف ، قال عليه الصلاة والسلام : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » .

ونحن في ركائز الدعاء ندعو الناس إلى أن يكون لهم رصيد عند الله من الخير حتى يستجيب دعاءهم ، وغير ذلك مما سبق لكننا لا ندعو الناس إلى أن يكونوا مظلومين حتى يستجيب الله لهم .

٣٠- الدعاء بصيغة الجماعة ..

والدعاء بصيغة الجماعة من ركائز الدعاء ودعائمه ، ودليل ذلك عموم القرآن الكريم ، حيث ورد الدعاء بلفظ الجماعة ، ألا ترى إلى قول الله تعالى في خاتمة البقرة : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الصحيحة ، ومنها ما رواه مسلم في صحيحه من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا » .

ورحم الله سيويوه وهو يتحدث عن مصادر الفعل الثلاثي ، فيقول

في مصدر (دعا) : دعوة ودعوى ، ثم قال : اللهم أشركنا في دعوى المسلمين ، لأن الله إذا استجاب دعاء صالح منهم دعا بلفظ الجماعة استجاب للآخرين ..

كما ورد في حديث الذاكرين لله الذين جلس معهم من جلس وله حاجة ، قال الله : هم السعداء لا يشقى بهم جليسهم .

وقد ظهرت الأنانية في الدعاء إلى حد ملحوظ ، ومن أضاف الجماعة إلى دعائه أفهم من يدعو له بأنه ضم الجماعة من أجله ، كأن يقول لولده : وفقك الله ، ووفق جميع أبناء المسلمين من أجلك ، ولم يفطن إلى أن الدعاء بلفظ الجماعة من ركائز الدعاء المستجاب الذي قد يكون بسبب أحد الصالحين الذين شملهم دعاؤه فينال الخير بسببهم ، والدين دين الأمة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، وكما تفضل صلاة الجماعة عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، يفضل كذلك الدعاء بلفظ الجماعة على دعاء الفرد .

ومن نواذر ما ذكره العلماء في دعاء الجماعة قولهم : إن الإسلام قد أوجب على من يتزوج أن يولم ؛ لكي يجتمع الناس على وليمته ويدعوا له ، فتتضافر القلوب على الدعاء فيستجيب الله .

٣١- التعب من أثر الأعمال المشروعة ..

والتعب من أثر الأعمال المشروعة من دعائم الدعاء وركائزه ، ودليل ذلك قول الله تعالى في سورة (الشرح الآيتين ٧ - ٨) : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ ، أى إلى فضل الله ورحمته فارغب ، وذلك يكون بالدعاء المتلبس بالعمل ، وانصب معناها اتعب .

وقد ثبت في الحديث الشريف : « أن من بات كالا من عمله بات مغفورا

له » .

فما قولك فى الذين يقولون : عدنا من أعمالنا مرهقين فنمنا ولم نصل العشاء ، ولم يبلغ الإرهاق بهم مبلغه حتى يصيبهم الإعياء فيناموا دون أن يشعروا حتى يكون لهم عذرهم فإذا استيقظوا صلوا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها » ، وما أطيب الدعاء الذى يكون إثر تعب من عمل صالح جاهد فيه المكلف فى الله حق جهاده ؛ فيرحم الله ضعفه ويجيب دعاءه .

٣٢- الدعاء بدعاء القرآن ..

لا خلاف بين العلماء فى أن الدعاء بدعاء القرآن الكريم أفضل الدعاء ، ألا ترى إلى قول الله تعالى فى سورة (الإسراء الآية ٨٠) : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ ، وإلى قوله عز من قائل فى سورة (طه الآية ١١٤) : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ ، فهلا قلنا كما أمرنا ربنا تعالى أن نقول حيث علمنا ما ندعوه به من أدعية تناسينا منها الكثير ، ومن ذلك دعاء القرآن الكريم فى آية (الحشر ١٠) : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ .

ومما يتميز به دعاء القرآن الكريم أنه جامع مانع لصالح الدنيا والآخرة ، وقد ذكر أبو حيان الأندلسى فى تفسيره البحر المحیط أن دعاء أهل الكهف يغنى عن دعاء الدهر وذلك قولهم : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رشدا ﴾ ؛ لأن الله تعالى إذا رحمنا فى الدنيا أنزل علينا الغيث ولم يجعلنا من القانطين ورزقنا العافية والسلامة ، والزوجة الصالحة ، والابن البار ، وكل ما من شأنه أن يجعل الدنيا حسنة ، وفى الآخرة يصرف عنا

عذاب جهنم ويدخلنا فسيح جناته ، وينضر وجوهنا بالنظر إلى وجهه الكريم .

والدعاء في المناسبات الدينية والاجتماعية ، وكل مناسبة هي من الدين ؛ لأنه دين الحياة يكون بما يحول في الخاطر دون تكلف من سجع أو تقيد بدعاء معين ، وهذه الركيزة من باب الأفضلية لا من باب الوجوب الذي لا يصح غيره ، فادع الله بما تشاء وبما تريد ما لم يكن دعاؤك بمحرم ولا باثم ولا بقطيعة ، ولا دعاء على نفسك أو ولدك أو دابتك ؛ فقد تكون ساعة إجابة فلا تلو من إلا نفسك .

٣٣ - عدم العجلة ..

وأختتم هذه الركائز المباركة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل » ، أى ما لم يقل : دعوت فلم يستجب لى ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه بين لنا أن الله تعالى إما أن يجيب دعاء العبد كما سأل ، وإما أن يعطيه خيراً منه وإما أن يدخر له فى الآخرة ، والله عليم قدير يعلم ما يصلح عباده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يتصورون أن شيئاً معيناً يدعون به هو سبب سعادتهم ، وقد يكون فى هذا الشيء بالذات سوء أعمالهم ، لقول الله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

وعلى المرء أن يدعو وهو موقن بالإجابة على النحو الذى بينه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فإن أجيب إلى ما سأل حمد الله وشكر ، وإن أعطى غيره رضى ولم يسخط ، وإن ادخر له فى الآخرة فذلك خير له من الدنيا وما فيها ، لقول الله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً ،

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ،
نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك مما علمناه وما لم نعلمه أنزلته
في كتابك أو علمته أحدا من عبادك أو أوحيت به إلى رسول من رسلك
أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا
وجلاء همومنا وأحزاننا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على
الوجه الذي يرضيك عنا ، اللهم وإني أسألك العافية قبل الابتلاء والسلامة
قبل الداء ، وأعوذ بك من السلب بعد العطاء ، فاكشف الله الكرب والغمة
عن الأمة ، وعن مصرنا العزيزة التي ذكرتها في كتابك فنورت حروفها ،
وأضأت معناها ، وأبقيت ذكرها ، اجعلها سخاء رخاء وسائر بلاد
المسلمين ، وول أمورها خيارها ولا تول أمورها شرارها ، وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين ، وصل الله وسلم على خاتم النبيين ، وسيد ولد آدم
أجمعين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين ، وصحبه الصالحين ، ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

أ. د. مديوك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر

فهرس

م	الموضوع	رقم الصفحة
	مقدمة	٣
١	أن يكون للداعي رصيد من الخيرات عند الله	٧
٢	أن يكون الدعاء ملتبسا بعمل صالح يرضاه الله	١٠
٣	أن يكون الداعي مخلصا لله الدين	١٢
٤	مناخ النعم	١٥
٥	أن يدعو الداعي غير متمن ما عند غيره	١٦
٦	أن يكون الداعي متضرعا	١٧
٧	أن يكون الداعي منخفض الصوت	١٨
٨	وأن يكون الداعي مصلحا غير مفسد في الأرض	٢٠
٩	أن يكون الداعي محسنا غير مُسيء	٢٣
١٠	أن يُقرّ الداعي بين يدي ربه في الدعاء بظلمه	٢٦
١١	أن يكون الدعاء عقب عمل صالح	٢٩
١٢	التلبس بنعمة من نعم الله	٣٣
١٣	أن يأخذ الداعي بالسبب	٣٥
١٤	ألا يكون الداعي عنيدا لآيات ربه	٣٧
١٥	أن يتوسل الداعي إلى الله تعالى بفضله عليه	٣٩
١٦	أن يكون الداعي شاكرا لله	٤١
١٧	أن يكون الداعي من التائبين	٤٣

م	الموضوع	رقم الصفحة
١٨	التقوى	٤٥
١٩	الصدقة	٤٨
٢٠	مدح الله تعالى	٥٠
٢١	القنوت	٥٢
٢٢	الصبر	٥٤
٢٣	الصدق	٥٦
٢٤	الاستغفار	٥٧
٢٥	التفكر في خلق السماوات والأرض	٥٩
٢٦	القول السديد	٦١
٢٧	الرضا	٦٦
٢٨	الاضطرار	٦٧
٢٩	الظلم	٦٨
٣٠	الدعاء بصيغة الجماعة	٧٠
٣١	التعب من أثر الأعمال المشروعة	٧٢
٣٢	الدعاء بدعاء القرآن	٧٣
٣٣	عدم العجلة	٧٥